الفصل الخامس

إشكالية إقامة الخلافة عند المؤرخين

شاءت عناية الله عز وجل أن تقوم الخلافة فى نفس يوم وفاة رسول الله ﷺ دون فكر مسبق أو ترتيب من الرسول أو الصحابة، وقد كان ذلك أمرا طبيعيا فلم يكن فى وسع رسول الله ﷺ أن يعهد لأحد أصحابه قبل وفاته بالنبوة؟! أو أن يحدد وريثا دون أن يكون له عرش، فهو – عليه الصلاة والسلام – لم يكن امبراطورا ولا ملكا.

يذكر ابن هشام فى سيرته، قال ابن إسحق: لما قبض رسول الله ﷺ انحاز هذا الحى من الأنصار إلى سعد بن عبادة فى سقيفه بنى ساعدة، واعتزل على بن أبى طالب والزبير ابن العوام وطلحه بن عبيد الله فى بيت فاطمة، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبى بكر، وانحاز معهم أسيد بن حضير فى بنى عبد الأشهل[1].

هذا السلوك الذى سلكه الصحابة – رضى الله تعالى عنهم – هو سلوك طبيعى، لأن السلوك الاجتماعى إزاء الكوارث يحتم أن تلتف كل جماعة حول قيادتها، فالتفاف الأنصار حول سعد بن عبادة أمر متوقع فهو كبير الأنصار، والتفاف بنى هاشم حول فاطمة الزهراء – للصبر والعزاء بعد ما أذهلها المصاب الفادح فى والدها العظيم ﷺ أمرا طبيعيا ومتوقعا أيضا؟!

وكان التفاف المهاجرين حول أبى بكر ليستمدوا من قوة إيمانه الصبر أمرا منطقيا، وهل كان هناك غير أبى بكر ليتصدى لتلك المهمة الخطيرة؟!

هذا هو موقف الصحابة رضى الله تعالى عنهم عقب سماعهم نبأ وفاة الرسول ﷺ وهو كما رأينا كان موقفا طبيعيا ومنطقيا، أما ما يثير الدهشة حقا هو سرعة تولد فكرة الخلافة بين الأنصار، بل وسرعة تطور الموقف فى سقيفة بنى ساعدة، وتحول اجتماعهم إلى جلسة ترشيح لسعد بن عبادة بالخلافة.

وقبل أن نحاول التماس الأسباب التى عجلت ببلورة فكرة الخلافة عند الأنصار قبل

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق عبدالسلام تدمري، ج٤، ص٣٠٨.

المهاجرين فإنه يجب علينا أن نجيب أولا على هذا السؤال الهام وهو: لماذا كان عرب يثرب أسرع تقبلا للدعوة الإسلامية من القرشيين فى مكة؟

فى الواقع كان عرب يثرب أسرع تقبلا للدعوة الإسلامية من القرشيين فى مكة لعدة أسباب: كانت يثرب فى الجاهلية تضم كتلتين رئيسيتين من السكان اليهود والعرب، وكان أكبر هذه القبائل اليهودية ثلاثا: بنو قريظة، بنوالنضير، بنوقيقاع، أما العرب فكانت أهم قبائلهم قبيلتان: قبيلة الخزرج، وقبلية الأوس، وكانت علاقة اليهود بعرب يثرب سيئة حتى إن هؤلاء العرب صمموا قبل هجرة النبى ﷺ إلى المدينة على إجلاء اليهود عنها، كذلك كان العرب أنفسهم متعادين فقد وقعت بين الخزرج والأوس حروب عدة نخص بالذكر منها ما حدث فى يوم (بعاث) حيث انتصرت قبيلة الأوس على قبيلة الخزرج قبل الهجرة بسنوات قلائل[1]، رغم قله عددها عن الخزرج، وقد كان من بين نتائج موقعة بعاث ميل الأوس والخزرج إلى تولية عبدالله بن أبى بن سلول سيد الخزرج فى هذا الوقت – أميرا عليهم جميعا حقنا للدماء[2] غير أنه حدث أن التقى حجاج يثرب بالنبى ﷺ بالعقبة ثم بايعوه، وقبلوا دعوته، كما رجعوا فى العام التالى بالبيعة بهجرته إلى قومهم، ودعوتهم إلى نصرة الإسلام والدخول فى طاعة الرسول ﷺ فلقيت دعوتهم قبولا منهم وعدولا بذلك عن تولية عبدالله بن أبى[3].

وقد سارع الأوس إلى قبول دعوة الرسول والترحيب بهجرته، لاعتقادهم أنه لم يتقدم عليه أحد بيثرب من الخزرج، أما الخزرج فقد رحبوا بدعوة الرسول ﷺ وهجرته إلى مدينتهم لوثوقهم من أنه يستطيع جمعهم مع الأوس تحت لوائه بعد انهزامهم فى موقعة بعاث، وفضلا عن ذلك لأنه من أكرم بيوتات قريش وسادتها ولصلة النسب التى تربطهم به[4]، فهو حفيد عبدالمطلب ابن سلمى بنت زيد من بنى النجار أحد بطون قبيلتهم الخزرج[5].

لذلك كان الأنصار أسرع استجابة لمشاعر الخطر الذى يهددهم بوفاة النبى ﷺ ، وهذا

(١) دكتور محمد جمال الدين سرور، قيام الدولة العربية الإسلامية فى حياة محمد ﷺ، دار الفكر العربى ١٣٩٧هـ –١٩٧٧م، ص٨٣.

(٢) السمهودي، كتاب الوفا بأخبار دار المصطفى ﷺ، ج١، ص١٥٥.

(٣) ابن خلدون.

(٤) دكتور محمد جمال الدين سرور، قيام الدولة العربية، ص٨٤.

(٥) محمد رضا، محمد رسول الله ﷺ، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨م، ص١٧.

ما يفسر قول معن بن عدى الأنصارى حيث قال: إن الناس (يعنى الأنصار) بكوا على رسول الله ﷺ حين توفاه الله عز وجل وقالوا: والله لوددنا أنا متنا، إنا نخشى أن نفتتن بعده[1].

لذلك ارتبطت سرعة تولد فكرة الخلافة ارتباطا وثيقا بسرعة تقبل الأنصار للإسلام عن القرشيين فى مكة، فهو أمر حتمته ظروف الأنصار، أضف إلى ذلك أن الأنصار كانوا هم سكان المدينة الأصليين، والمهاجرين وافدون عليهم، وأن المبادرة كانت يجب ألا تأتى إلا منهم.

الترشيح واختيار الخليفة:

لذلك اجتمعت الأنصار فى سقيفة بنى ساعده وقالوا : نولى الأمر سعد بن عبادة سيد الخزرج، فأخرجوا سعدا إليهم وهو مريض، فطلب سعد ابنه أو بعض بنى عمه أن يتلقى منه القول ثم يسمعه القوم لعدم قدرته على أن يسمع القوم كلهم كلامه لمرضه، فكان يتكلم وينقل الرجل قوله: فيرفع صوته فيسمع كل المجتمعين: فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا معشر الأنصار، لكم سابقة فى الدين وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب، وإن محمدا عليه الصلاة والسلام لبث بضع عشرة سنة فى قومة يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان، فما آمن به قومه إلا رجال قليل، وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله، ولا أن يعزوا دينه، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيما عموا به، حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشد الناس على عدوه منكم، وأثقله على عدوه من غيركم، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرها، وأعطى البعيد المقادة صاغرا داخرا، حتى أثخن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب، وتوفاه الله وهو عنكم راض، بل قرير العين، استبدوا بهذا الأمر فإنه لكم من دون الناس.

فأجابوه بأجمعهم: أن قد وفقت فى الرأى وأصبت فى القول، ولن نعدوا ما رأيت ونوليك هذا الأمر فإنك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رضا.

ثم ترادوا الكلام بينهم، فقالوا: فإن أبت مهاجرة قريش، فقالوا: نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون، ونحن عشيرته وأولياؤه فعلام تنازعوننا هذا بعده!

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤، ص٣١١، الطبري، تاريخ الطبرى ج٣، ص٢٠٧.

فقالت طائفة منهم: فإنا نقول إذا: منا أمير ومنكم أمير، ولن نرضى بدون هذا الأمر أبدا، فقال سعد بن عبادة حين سمعها: هذا أول الوهن[1].

ويصل بعد قليل أبوبكر وعمر وأبوعبيده بن الجراح، ويدخلون على الأنصار وهم مجتمعون، فقد ذكر ابن هشام أنه قد أتى آت إلى أبى بكر وعمر، فقال: إن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا قبل أن يتفاقم أمرهم، ورسول الله ﷺ فى بيته لم يفرغ من أمره قد أغلق دون الباب أهله، قال عمر: فقلت لأبى بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، حتى ننظر ما هم عليه[2].

أما الطبرى فيذكر أن خبر اجتماع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة قد أتى عمر بن الخطاب أولا، فأقبل عمر إلى منزل النبى ﷺ فأرسل إلى أبى بكر أن اخرج إلى فأرسل إليه: أنى مشتغل، فأرسل إليه أنه قد حدث أمر لابد لك من حضوره، فخرج إليه فقال: أما علمت أن الانصار قد اجتمعت فى سقيفة بنى ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد ابن عبادة، وأحسنهم مقالة من يقول: منا أمير ومن قريش أمير، فمضيا مسرعين نحوهم[3] ويذكر ابن هشام أنهما وهما فى الطريق لقيا رجلين من الأنصار فذكرا لهما ما تمالأ عليه القوم، وقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ قالوا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار، قالا فلا عليكم ألا تقربوهم يا معشر المهاجرين، اقضوا أمركم فقال عمر، والله لنأتينهم[4].

أما الطبرى فيذكر القصة السابقة موضحا أن الرجلين الصالحين هما: عاصم بن عدى، وعويم بن ساعده، وأن هذا اللقاء حدث بعد أن انضم أبوعبيده بن الجراح إلى أبى بكر وعمر، وليس قبل ذلك[5].

ويستطرد ابن هشام على لسان عمر بن الخطاب حيث يقول، فانطلقنا حتى أتيناهم فى سقيفة بنى ساعدة، فإذا بين ظهرانيهم رجل مزمل، فقلت: من هذا؟ فقالوا: سعد بن عبادة، فقلت: ما له؟ فقالوا: وجع، فلما جلسنا نشهد خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهل له، ثم قال: أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا وقد دفت دافة من قومكم (الجماعة من الناس تأتى من بلد إلى بلد) قال: وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا، يغصبونا الأمر فلما سكت أردت أن أتكلم، وقد زودت

(١) الطبرى، تاريخ الرسل، ج٣، ص٢١٨.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية ج٤، ص٣٠٨.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل، ج٩، ص٢١٩.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية ج٤، ص٣١٠.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية ج٤، ص٣١٠، الطبري، تاريخ الرسل، ج٣، ص٢١٩.

(أعددت) فى نفسى مقالة قد أعجبتنى، أريد أن أقدمها بين يدى أبى بكر، وكنت أدارى منه بعض الحد (الحدة) فقال أبوبكر: على رسلك يا عمر، فكرهت أن أغضبه، فتكلم، وهو كان أعلم منى وأوقر، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتنى من تزويرى إلا قالها فى بديهته، أو مثلها أو أفضل[1].

وقبل أن نتابع الكلمة التى قالها أبوبكر نود الإشارة إلى حقيقة هامة، وهى أن الأنصار رغم أنهم لم يرشحوا للخلافة إلا مرشحا واحدا هو سعد بن عبادة، ورغم أنه أيضا مضى من الوقت ما يكفى للأنصار أن يبايعوا مرشحهم الوحيد قبل أن يحضر وفد المهاجرين إلى سقيفة بنى ساعدة فإنهم رغم هذا لم يبرموا أمرا حتى وصل إليهم وفد المهاجرين، وهذا إن دل فإنما يدل على أن الأنصار رغم أنهم قد أجمعوا على ضرورة قيام الخلافة، ورغم إجماعهم على أن مرشحهم لهذا المنصب هو سعد بن عبادة فقط دون منافس آخر من الأنصار فإنهم لم يكونوا على قناعة كافية بأن يكون الخليفة منهم، لأنه لم يكن هنا ما يمنعهم من أن يبايعوا سعد بن عبادة، ويضعوا المهاجرين أمام أمر واقع.

لذلك فإن اجتماع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة لا يعدو أن يكون لتدارس الموقف بعد وفاة الرسول ﷺ والإعداد لخوض عملية انتخاب الخليفة.

بدأ أبوبكر حديث فى اجتماع السقيفة بحمد الله والثناء عليه، ثم قال: إن الله بعث محمد رسولا إلى خلقه، وشهيدا على أمته ليعبدوا الله ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة، ولهم نافعة، وإنما هى من حجر منحوت، وخشب منجور، ثم قرأ:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[سورة يونس: الآية ١٨]

وقالوا:

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣]

فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه،

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٣، ص٢١٩.

والإيمان به والمواساة له، والصبر معه على شدة أذى قومهم، وتكذيبهم إياهم، وكل الناس لهم مخالف زار عليهم، فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس بهم، واجماع قومهم عليهم، فهم أول من عبدالله فى الأرض وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم فى ذلك إلا ظالم، وأنتم يا معشر الأنصار، من لا ينكر فضلهم فى الدين، ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام، رضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجرته، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه، فليس من بعد المهاجرين الأولين عند أحد بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، ولا تفتاتون بمشورة ولا نقضى دونكم الأمور[1].

وتمضى وقائع الجلسة فى جو تسوده حرية الرأى فيقوم الحباب بن المنذر ليعرض الرأى الآخر بعد أن عرض أبوبكر وجهة نظر المهاجرين، فقال: يا معشر الأنصار، املكوا عليكم أمركم، فإن الناس فى فيئكم وفى ظلكم، ولن يجترئ على خلافكم، ولن يصدر إلا عن رأيكم أنتم أهل العز والثروة، وأولو العدد والمنعة والتجربة، ذوو البأس والنجدة، وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون، ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم وينتقض عليكم أمركم، فإن أبى هؤلاء إلا ما سمعتم، فمنا أمير ومنهم أمير.

فقال عمر: هيهات، لا يجتمع اثنان فى قرن! والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين، من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته، ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم ومتورط فى هلكة[2]!

فقام الحباب بن المنذر مرة أخرى وقال: يا معشر الأنصار، املوا على أيديكم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم ما سألتموه فأجلوهم عن هذه البلاد، وتولوا عليهم هذه الأمور، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم، فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين، أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب! أما والله لئن شئتم لنعيذنها جذعة (فتية).

فرد عليه عمر: إذا يقتلك الله! قال: بل إياك يقتل![3]

(١) الطبرى، المصدر السابق ج٣، ص٢١٩، ٢٢٠.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٣، ص٢٢٠.

(٣) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.

ويورد الطبرى فى كتابه (تاريخ الرسل والملوك كلمة قصيرة لأبى عبيده بن الجراح ألقاها حين تحرج الموقف بين الحباب بن المنذر وعمر بن الخطاب قال فيها: يا معشر الأنصار، إنكم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بدل وغير.

ولما كانت كلمة أبى عبيده بن الجراح السابقة هى الكلمة الوحيدة التى ذكرها الطبرى له، فإن هذا يعنى أحد أمرين: أولهما أن أبا عبيده بن الجراح قال كلمته هذه قبل أن يتحرج الموقف بين الرجلين الحباب وعمر حيث يذكر الحباب فى كلمته (ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه) يعنى أن كلا من الرجال الثلاثة قد تكلم أبوبكر وعمر وأبى عبيدة، مادامت أنها الكلمة الوحيدة التى وردت على لسان أبى عبيدة بن الجراح.

وثانيهما أن تكون كلمة أبى عبيدة بن الجراح فعلا قالها لما تحرج الموقف بين الحباب وعمر، وفى هذه الجلسة يكون لأبى عبيدة كلمات أخرى قالها فى تلك الجلسة التاريخية ولكن المصادر أهملتها.

وبعد ذلك يلقى أحد الأنصار – وهو بشير بن سعد – كلمة هيأت القضية للحكم فيها، كما يتضح منها أيضا قد تهيأوا بعد تلك المناقشات لقبول الحكم لصالح المهاجرين، وقال بشير بن سعد:

يا معشر الأنصار، إنا والله لئن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين، وسابقة فى هذا الدين، ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا، والكدح لأنفسنا، فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك، ولا نبتغى به من الدنيا عرضا، فإن الله ولى المنة علينا لذلك، إلا أن محمدا ﷺ من قريش، وقومه أحق به وأولى، وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبدا فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم[1].

وهكذا تهيأ الجو لأن يحسم أبوبكر الموقف فقال: أما ما ذكرتم فيكم من خير، فأنتم له أهل، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش هم أوسط العرب نسبا ودارا، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم[2] وأخذ بيد عمر ويد أبى عبيدة، وهو جالس بينهما[3] لكن عمر وأبا عبيدة قالا: لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك، فإنك أفضل المهاجرين وثانى اثنين إذ هما فى الغار وخليفة رسول الله على الصلاة، والصلاة دين المسلمين، فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك[4].

(١) الطبرى، تاريخ الرسل، ج٣، ص٢٢١.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤، ص٣١٠، الطبرى، تاريخ الرسل، ج٣، ص٢٢١.

(٣) ابن هشام، المصدر السابق، ج٣، ص٢٢١.

(٤) الطبرى، تاريخ الرسل، ج٣، ص٢٢١.

ويشير ابن هشام إلى محاولة رجل من الأنصار عرض فيها أن يشترك الأنصار مع المهاجرين فى الإمارة حيث قال: منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش[1]، بينما يشير الطبرى أن هذه المحاولة كانت من أكثر من فرد من الأنصار حيث يذكر (فقالوا منا أمير ومنكم أمير)[2].

ويبدو أن أبابكر كرر هنا ما قاله عليهم من قبل وهو قوله: منا الأمراء ومنكم الوزراء، لأن الطبرى يذكر هذا القول لأبى بكر مرة أخرى فى هذا الموقف[3].

ويسرع عمر بن الخطاب بحسم الموقف فيذكر ابن هشام على لسان عمر أنه قال، فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات حتى تخوفت الاختلاف، فقلت ابسط يدك يا أبا بكر فبسط يديه فبايعته[4].

ويعلق عمر بن الخطاب رضى الله عنه على ما حدث بقوله: إنا والله ما وجدنا فيما حضرنا أمرا هو أوفق من مبايعة أبى بكر خشينا إن فارقنا القوم، ولم تكن بيعة، أن يحدثوا بعدنا بيعة فإما أن نبايعهم على ما لا نرضى وإما أن نخالفهم فيكون فيه فساد[5].

يفهم مما سبق أن الصحابة لم يختلفوا فى سقيفة بنى ساعدة، وأنه كان هناك حرص شديد على عدم الاختلاف، والدليل على ذلك شهادة عمر نفسه، حيث يقول: حتى تخوفت الخلاف، وقوله: "وإما نخالفهم فيكون فيه فساد"، ثم أين هذا الاختلاف الذى يتصوره البعض للأسف رغم علمهم يقينا أن عملية الترشيح للخلافة، واختيار الخليفة ثم بيعته فى سقيفة بنى ساعدة كلها تمت فى سويعات قليلة من يوم واحد هو نفس يوم وفاة الرسول ﷺ.

وقائع البيعة الخاصة والبيعة العامة:

انتهى اجتماع سقيفة بن ساعدة بترشيح أبى بكر رضى الله تعالى عنه للخلافة، وعليه طلب عمر بن الخطاب من أبى بكر أن يبسط يده للمبايعة، وهو ما عرف بالبيعة الخاصة تمييزا عن البيعة العامة التى تمت فى اليوم التالى فى المسجد النبوى الشريف.

وقد انحصرت البيعة الخاصة فى المجتمعين فى سقيفة بنى ساعدة فقط، ويفهم من كلام ابن هشام أن عمر بن الخطاب كان أول من بايع أبا بكر بالخلافة حيث يذكر على لسان عمر: فقلت ابسط يدك يا أبا بكر فبسط يده فبايعته[6].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق، ص٢٠١

(٣) الطبرى، تاريخ الرسل، ج٣، ص٢٠١.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤، ص٣١١.

(٥) السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار الفكر، لبنان، بيروت، ص٦٣.

(٦) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤، ص٣١١.

وهذا ما يفهم من كلام الطبرى أيضا حيث يقول: فبايعه عمر وبايعه الناس[1]، ولكن الطبرى يعود فيوضح أنه لما ذهب عمر بن الخطاب وأبوعبيدة بن الجراح لمبايعة أبى بكر، سبقهما إليه بشير بن سعد فبايعه[2].

ثم يذكر الطبرى أنه لما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد، وما تدعو إليه قريش، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان أحد النقباء: والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبا أبدا، فقوموا فبايعوا، فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم.[3]

وأقبلت أسلم بجماعتها حتى تضايقت بهم السكك، فبايعوا أبا بكر وهنا يذكر الطبرى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: ما هو إلا أن رأيت أسلم، فأيقنت بالنصر.

ثم أقبل الأنصار من كل جانب يبايعون أبا بكر، وكادوا يطئون سعد بن عبادة، فَقَالَ ناس من أصحاب سعد: اتقوا سعدا لا تطئوه[4]، فَقَالَ عمر: اقتلوه قتله الله! ثم قام على رأسه، فَقَالَ: لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضدك، فأخذ سعد بلحية عمر، فقال: والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفى فيك واضحة، فقال أبوبكر: مهلا يا عمر! الرفق هاهنا أبلغ فأعرض عنه عمر وقال سعد: أما والله لو أن بى قوة ما أقوى على النهوض، لسمعت منى فِى أقطارها وسككها زئيرا يجحرك وأصحابك، أما والله إذا لألحقنك بقوم كنت فيهم تابعا غير متبوع! احملونى من هذا المكان، فحملوه فأدخلوه فِى داره، وترك أياما ثم بعث إليه أن أقبل فبايع فقد بايع الناس وبايع قومك، فقال: أما والله حتى أرميكم بما فِى كنانتى من نبلى، وأخضب سنان رمحى، وأضربكم بسيفى ما ملكته يدى، وأقاتلكم بأهل بيتى ومن أطاعنى من قومى، فلا أفعل، وأيم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم، حتى أعرض على ربى، وأعلم ما حسابى.

فلما أتى أبوبكر بذلك قال له عمر: لا تدعه حتى يبايع فقال له بشير بن سعد: إنه قد لج وأبى، وليس بمبايعكم حتى يقتل، وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته

(١) الطبرى، تاريخ الرسل، ج٤، ص٣١١.
(٢) المصدر السابق ج٣، ص٢٠٢.
(٣) الطبرى، تاريخ الرسل، ج٣، ص٢٢١.
(٤) المصدر السابق ج٣، ص٢٢٢.

وطائفة من عشيرته، فاتركوه فليس تركه بضاركم، إنما هو رجل واحد فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد[1].

ولكن الطبرى نفسه الذى ذكر تلك الرواية فإنه يذكر أيضا فى صفحة سابقة على تلك الرواية أنه لم يتخلف أحد من الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة عن مبايعة أبى بكر[2] كما أنه يعود فى الصفحة التاليه للصفحة التى ذكر فيها رواية امتناع سعد بن عبادة عن مبايعة أبى بكر ويذكر أن سعد بن عبادة قال يومئذ لأبى بكر: إنكم يا معشر المهاجرين حسدتمونى على الإمارة، وإنك وقومى أجبرتمونى على البيعة، فقالوا: إنا لو أجبرناك على الفرقة فصِرت إلى الجماعة كنت فى سعة، ولكنا أجبرناك على الجماعة، فلا إقالة فِيها، لئن نزعت يدا من طاعة، أو فرقت جماعة، لنضربن الذى فيه عيناك[3].

نفهم من ذلك أن سعد بن عبادة بايع يومئذ أبا بكر ولو مكرها، وبذلك يكون قد بايع أبا بكر كل الأنصار ولم يتخلف أحد، وهذه هى ما عرفت بالبيعة الخاصة.

أما البيعة العامة فيذكر ابن هشام والطبرى أن أنس بن مالك قال، لما بويع أبوبكر فى السقيفة وكان الغد، جلس أبوبكر على المنبر فقام عمر فتكلم قبل أبى بكر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال:

أيها الناس، إنى قد كنت قلت لكم أمس مقالة ما كانت مما وجدتها فى كتاب الله، ولا كانت عهدا إلى رسول الله ﷺ ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله ﷺ سيدبر أمرنا حتى[4] يكون آخرنا وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذى هدى به رسول الله، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله، ثانى اثنين إذ هما فى الغار فقوموا فبايعوه، فبايع الناس أبابكر بيعة عامة بعد بيعة السقيفة[5].

بعد ذلك تكلم أبوبكر، فحمد الله، وأثنى عليه بالذى هو أهله، ثم قال أما بعد أيها الناس، فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى، والصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه

(١) الطبرى، تاريخ الرسل، ج٣، ص٢٢٢.

(٢) المصدر السابق ج١، ص٣٤٨.

(٣) المصدر السابق ج١، ص٣٤٨.

(٤) لم يذكر فى نسخة ابن هشام كلمة (حتى) وإنما ذكرت كلمة (بقول) ج٤، ص١٣٢.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤، ص١٣٢، الطبري، تاريخ الرسل، ج٣٢، ص٢١٠.

حقه إن شاء الله، والقوى عندى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم قط الطاعة إلا عمهم الله بالبلاء، فأطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله[1].

وبعد أن قضيت الصلاة قام أبوبكر فى الناس خطيبا بعد خطبته الأولى فقال: الحمد لله أحمده وأومن بوحدانيته وأستعينه على أمركم كله سره وعلانيته، ونعوذ بالله مما يأتى به الليل والنهار، وترتكب عليه السر والجهار، وأشهد أن لا إله إلا الله حافظا ونصيرا وأن محمدا عبده ورسوله بالحق بشيرا ونذيرا قدام الساعة، فمن أطاعه رشد، ومن عصاه هلك وشرد فعليكم أيها الناس بتقوى الله، فإن أكيس الكيس التقوى، وإن أحمق الحمق الفجور فاتبعوا كتاب الله واقبلوا نصيحته، واقتدوا بسنة رسوله وخذوا شريعته فإن الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات وهو الحكيم العليم:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ﴾[سورة الشورى: الآية: ٢٨]

واحذروا الخطايا التى لكل بنى آدم فيها نصيب، وتزودوا للآخرة فإن المصير إليها قريب، ولكن خيركم من اتبع طاعة الله واجتنب معصيته، فاحذروا يوما لا ينفع فيه من حميم ولا شفيع يطاع، وليعمل عامل ما استطاع من عمل يقربه إلى ربه، واعملوا الخير فإن قليله كثير نام مبارك، واتقوا الله حق تقاته، واحذروا ما حذركم فى كتابه، وتوقوا معصيته خشية من عقابه، فليس فيها رغبة لأحد استعفوا عما حرم الله وأمر باجتنابه، وإياكم والمحقرات فإنها تقرب إلى الموجبات، واعملوا قبل أن لا تعملوا، وتوبوا من الخطايا التى لا يغسلها إلا رحمة الله برحمته، وصلوا على نبيكم كما أمركم ربكم، ثم قال: أيها الناس! إن الذى رأيتم منى لم يكن لى حرص على ولايتكم، ولكنى خفت الفتنة والاختلاف فدخلت فيها، وهأنذا وقد رجع الأمر إلى أحسنه وكفى الله تلك الثائرة، وهذا أمركم إليكم تولوا من أحببتم من الناس وأنا أجيبكم على ذلك، وأكون كأحدكم، فأجابه الناس: رضينا بك قسما وحظا إذ أنت ثانى اثنين مع رسول الله ﷺ فقال أبوبكر: اللهم صل على محمد والسلام على محمد ورحمة الله وبركاته، اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثنى عليك ولا نكفرك، ونؤمن بك ونخلع من يكفرك[2].

(١) المصدرين السابقين، نفس الصفحات

(٢) ابن حبان، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، صححه وعلق عليه الحافظ السيد، عزيز بك وجماعة من العلماء، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ص٤٢٥-٤٢٦.

هل اختلف على بن أبى طالب على مبايعة أبى بكر؟

اختلفت روايات المؤرخين فى إجماع الصحابة على مبايعة أبى بكر فبينما يورد الطبرى أنه لم يتخلف أحد من الأنصار عن مبايعة أبى بكر فى سقيفة بنى ساعدة، وتتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم[١]، يذكر اليعقوبى أنه: تخلف عن بيعة أبى بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع على بن أبى طالب، منهم العباس بن عبدالمطلب والفضل بن العباس والزبير بن العوام، وخالد بن سعيد والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسى، وأبوذر الغفارى، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأبى بن كعب[٢].

ونحن حينما نستعرض أقوال المؤرخين فى قضية مبايعة على بن أبى طالب لأبى بكر فنجدها تنقسم إلى مجموعتين:

المجموعة الأولى: تفيد بأن عليا كان يرى أن أبابكر أهل للخلافة، ولذلك فإنه لم يتخلف عن البيعة العامة رغم انشغاله والهاشميين بتجهيز رسول الله ﷺ.

أما المجموعة الثانية: فتفيد أن عليا امتنع عن مبايعة أبى بكر فترة من الزمن قدرت بستة أشهر وقيل إنها ٧٥ ليلة من وفاة الرسول ﷺ وأقلها ٤٠ يوم فقط.

وبالنسبة للمجموعة الأولى فيذكر الطبرى أنه لما اجتمع الناس على بيعة أبى بكر، أقبل أبوسفيان وهو يقول: والله إنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم يا آل عبد مناف فيم أبوبكر من أموركم أين المستضعفان؟ أين الأذلان على والعباس؟ وقال: إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت الإسلام شرا لا حاجة لنا فى نصيحتك[٣]. كما يذكر الطبرى أن عليا قال أيضا لأبى سفيان إنا وجدنا أبابكر لها أهلا[٤].

وكما تفيدنا النصوص السابقة أن عليا كان يرى أن أبابكر أهل للخلافة فإن النصوص التالية تفيد أن عليا لم يتخلف عن مبايعة أبى بكر فى البيعة العامة

وأخيرا يذكر الطبرى نصا يفيد أن عليا لم يتخلف عن البيعة العامة، ولكن يفهم من النص أنه جاء مكرها حيث يقول الطبرى: وتخلف على والزبير، واخترط الزبير سيفه، وقال لا أغمده حتى يبايع على، فبلغ أبا بكر وعمر، فقال عمر، خذوا سيف الزبير فاضربوا

---

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، الجزء الثاني، نشر المكتبة المرتضوية بالنجف، ١٣٥٨هـ، ص١٠٣.

(٢) الطبرى، تاريخ الرسل، ج٣، ص٢٠٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الطبرى، تاريخ الرسل، ج٣، ص٢٠٧.

به الحجر، قال فانطلق إليهم عمر فجاء بهما تعبا وقال لتبايعان وأنتما طائعان، أو لتبايعان وأنتما كارهان! فبايعا[1].

أما نصوص المجموعة الثانية فتنقسم بدورها إلى مجموعتين:

المجموعة الأولى منها تصور لنا بداية اختلاف وقع بين فاطمة الزهراء وأبى بكر الصديق رضى الله عنهما على ميراثها من رسول الله ﷺ فيذكر الطبرى أن فاطمة والعباس أتيا أبابكر يطالبان ميراثهما من رسول الله ﷺ وهما حينئذ يطالبان أرضه من فدك، وسهمه من خيبر، فقال لهما أبوبكر: أما أنى سمعت رسول الله يقول: لا نورث ما تركناه فهو صدقة، وإنما يأكل آل محمد فى هذا المال وإنى والله لا أدع أمرا رأيت رسول الله يصنعه، فهجرته فاطمة فلم تكلمه فى ذلك حتى ماتت[2].

أما الطبرى فيروى رواية قالها رجل للزهرى نصها: أفلم يبايعه على ستة أشهر، قال: لا، ولا أحد من بنى هاشم، حتى بايعه على فلما رأى على انصراف وجوه الناس عنه ضرع إلى مصالحة أبى بكر فأرسل إلى أبى بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد، وكره أن يأتيه عمر لما علم من شدة عمر، فقال عمر لا تأتيهم وحدك، قال أبوبكر والله لآتينهم وحدى، وما عسى أن يصنعوا بى! قال، فانطلق أبوبكر فدخل على على، وقد جمع بنى هاشم عنده فقام على فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال أما بعد فإنه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبابكر إنكارا لفضيلتك ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك، ولكنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقا، فاستبددتم به علينا.

الحق أن النصوص السابقة وإن كانت تفيد تخلف على بن أبى طالب عن مبايعة أبى بكر الصديق بالخلافة فترة من الزمن، إلا أنها لا تفيد إطلاقا تخلف على عن المبايعة لأنه كان يرى أنه أحق من أبى بكر بالخلافة، وإنما لتمسك أبى بكر بأن كل ما تركه الرسول ﷺ فهو صدقة.

أما نصوص المجموعة الثانية فيذكر ابن سعد أن عليا كان يرى أنه أحق بنى هاشم بميراثهم عن النبى باعتباره زوج السيدة فاطمة الزهراء، وأبا سبطى رسول الله ﷺ وهو الذى اعتبره رسول الله بالنسبة إليه بمنزلة هارون من موسى[3].

(١) الطبرى، تاريخ الرسل، ج٣، ص٢٠٧، ٢٠٨ابن حبان السيرة النبوية ص٤٢٩.

(٢) الطبرى، تاريخ الرسل، ج٣، ص٢٠٧، ٢٠٩.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، طبعة ليدن، تحقيق الدكتور سترستين، ج٣، ص٢٤.

هذا الكلام الذى ذكره ابن سعد فى طبقاته وإن كان قد يفيد تلميحا أن عليا كان يرى أنه أحق بالخلافة من أبى بكر، إلا أن النصوص صراحة لا تفيد إلا أن المشكلة لا تتعدى أن تكون مشكلة ميراث.

لكن ابن قتيبة ينفرد بروايتين تتعارضان تماما مع كل النصوص التى سبقت فيذكر فى الرواية الأولى أن العباس عم رسول الله ﷺ أقبل على على وطلب منه أن يبسط يده ليبايعه لكن عليا يرفض ويقول ومن يطلب هذا الأمر غيرنا[1].

أما الرواية الثانية فيذكر فيها أن على بن أبى طالب امتنع عن مبايعة أبى بكر هو وجماعة من الهاشمية والزبير بن العوام، وتخلفوا فى بيت فاطمة الزهراء، فخرج عليهم عمر بن الخطاب فى جماعة من الصحابة وأرغموا بنى هاشم والزبير على مبايعة أبى بكر[2]، وقال: أنا أحق بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لى، أخذتم هذا الحق من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من النبى ﷺ وتأخذونه من أهل البيت غصبا ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم فأعطوكم المقادة، وسلموا إليكم الإمارة فإذا احتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار نحن أولى برسول الله حيا وميتا وزجرت أبابكر وأعلنت سخطها عليه وعلى عمر[3].

وهكذا أصبح قتيبة هو الوحيد الذى انفرد برواية صريحة وضعت على بن أبى طالب موضع الحاسد لأبى بكر على الخلافة، وقد تبع ابن قتيبة للأسف عدد كبير ممن نقلوا عنه خاصة فى عصرنا الحديث دون دراسة متأنية للنصوص.

الواقع أن ما رواه ابن قتيبة مردود عليه

أولاً: لماذا لم يذكر أحد من المؤرخين السابقين على ابن قتيبه مثل تلك الروايات، وخاصة ونحن نعلم أن ابن قتيبة لم يكن شاهد عيان فقد كان بينه وبين زمن تلك الأحداث أكثر من قرنين من الزمان، بل على العكس يذكر مؤرخ من عصر ابن قتيبة وهو الطبرى أن عليا ابن أبى طالب رفض الخلافة فى أول الأمر حينما عرضوها عليه، وهذا هو نص ما ذكره الطبرى: بقيت المدينة بعد قتل عثمان خمسة أيام وأميرها الغافقى بن حرب يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بهذا الأمر فلا يجدونه، يأتى المصريون عليا فيختبئ منهم ويلوذ

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج١، القاهرة، ١٩٣٧، ص٦.

(٢) المصدر السابق، ص١٤.

(٣) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج١، القاهرة ١٩٣٧، ص١٦، ١٧.

بحيطان المدينة أى بساتينها فإذا لقوه باعدهم وتبرأ منهم ومن مقالتهم مرة بعد مرة، ويقول الطبرى بعد ذلك إن الناس أتوا عليا وهو فى سوق المدينة وقالوا له: ابسط يدك نبايعك قال: لا تعجلوا فإن عمر كان رجلا مباركا وقد أوصى بها شورى فأمهلوا يجتمع الناس ويتشاورون فارتد الناس عن على ثم يقول الطبرى أيضا فلما اجتمع أهل المدينة قال لهم أهل مصر: أنتم أهل الشورى وأنتم تعقدون الإمامة، فانظروا رجلا منكم تنصبونه، فقال الجمهور: على بن أبى طالب نحن به راضون فقال على: دعونى والتمسوا غيرى فقالوا: ننشدك الله ألا ترى الفتنة: ألا تخاف الله؟ فقال: إن أجبتكم ركبت به ما أعلم، وأن تركتمونى فإنما أنا كأحدكم، إلا أنى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، ثم افترقوا على ذلك.

ثانيا: لماذا لم يصعد على بن أبى طالب المشكلة مرة أخرى عند تولية عمر بن الخطاب، وأيضا عند تولية عثمان مادام أنه كان يرى أنه أحق بالخلافة من أبى بكر كما ادعى ابن قتيبة فى الواقع إننى شخصيا لم أجد مبررا لما جاء فى كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة إلا انتماءا شيعيا لابن قتيبة، أو أن كتاب الإمامة والسياسة كتاب مدسوس.

* * *